جامعة الزرقا الأهلية
الأردن
كلية الشريعة

مؤتمر
كلية الشريعة السابع
(إعجاز القرآن الكريم)

الدكتور
محمد السيد عبد الرازق موسى
أستاذ مساعد البلاغة والنقد
كلية التربية ـ جامعة المنصورة

الإعجاز البلاغى للتقديم والتأخير

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيرا.. وبعد.

فإن القرآن الكريم أعظم أنيس وخير جليس ، لا يمل حديثه ولا تنفد عجائبه، وترداده يزداد فيه تجملا، وإن من أسرار القرآن العظيم وروعة بيانه أنك كلما أبحرت فيه ازددت تعمقا وشوقا، وكلما نهلت من فيضه ومعينه الصافى ازددت به تعلقا وتشبثا، وما يبعد عنه إلا من جفا قلبه وغلظ كبده.

وهذا كتاب الله –تعالى– الذى شغل العالم منذ نزوله إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو مصباح الظلام ومنهل البيان الذى وقف فحول العرب وفصحاؤهم أمامه عاجزين مشدوهين، وهم الذين طالما خاضوا معارك البلاغة والبيان، وتباروا فى فنون القول وأسراره حتى أسروا القلوب والأذهان بسحر بيانهم وتبيينهم، وها هم أولاء يقفون أمام البيان الأعظم مأسورين مشدوهين عاجزين!!

وقد جاء أسلوب القرآن الكريم فى الغاية العظمى من البلاغة والفصاحة، وخرج عن جميع وجوه النظم المتعارف عليها فى كلام العرب، فتوافر العلماء على البحث فى أسراره واستخراج درره، فصنف فيه الزملكانى والفراء وأبو عبيده وابن قتيبة والإمام الرازى وعبد القاهر الجرجانى وغيرهم، (والواقع أن المصنفات الأولى فى الإعجاز، على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشبه بمباحث بلاغية مما قدروا أن إعجاز القرآن يُعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين فى وجوه الإعجاز، فرسائل الخطّابى السنى، والرمانى المعتزلى، والباقلانى الأشعرى، تأخذ مكانها فى المكتبة البلاغية، وبعد أن استقلت البلاغة بالتأليف والتصنيف، وُجِّهت إلى خدمة الإعجاز البلاغى.. الجرجانى يضع كتابه فى النظم والبلاغة ويقدمه باسم (دلائل الإعجاز)، وأبو هلال العسكرى يضع علم الفصاحة والبلاغة تالياً لعلم التوحيد، والزمخشرى، وهو من المعتزلة يقرر أنه لابد من علم البيان والمعانى لإدراك معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وجرى المتأخرون على أن يجمعوا فى الإعجاز كل ما قال السلف من وجوه، كصنيع الشيخ محمد عبده فى الفصل الذى كتبه فى تفسيره (تفسير الذكر الحكيم) عن الإعجاز[1].

---

[1] د. عائشة عبد الرحمن –الإعجاز البيانى للقرآن– ط2– دار المعارف بمصر– 1987– ص94.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث فى وجود دقائق نفيسة ولطائف بليغة لأسلوب التقديم والتأخير الذى عده ابن جنى إحدى صور شجاعته العربية وقوة لغتها.. ويتنوع هذا الأسلوب وتتغير دلالته تبعا لتغير السياق وحاجة المقام، فما كان لكلمة أن تتقدم من مكانها دون غاية معنوية وهدف دلالى تريد أن تبثه فى الجملة.. والقرآن الكريم.. كلام الله المعجز وبيانه المحكم يشتمل على هذه الأساليب التى ينبغى الوقوف مع أسرارها ودلائلها.

هدف البحث ومنهجه:

يهدف البحث إلى الوقوف على أساليب التقديم والتأخير ومعرفة لطائفه، فهو باب "كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضى بك إلى لطيفه"[1] ثم يقول: إلا أن الشأن فى أنه ينبغى أن يعرف فى كل شئ قدم فيه موضع من الكلام مثل هذا المعنى، ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير"[2]

وقد تمثل منهج البحث فى الخطوات الآتية:

- أولا: التقديم لمرعاة السياق وحسن انتظام الكلام.
- ثانيا: التقديم للاختصاص.
- ثالثا: التقديم بين الآية والآية، وهذه الوقفة تشمل ما يأتى:
- تقديم صيغة على أخرى فى بعض آيات السورة الواحدة.
- تقديم آية على آية فى النزول.
- تقديم موضوع على آخر فى السورة الواحدة.
- التقديم والتأخير فى المتشابه.
- الخاتمة وتتضمن أهم نتائج البحث وبعض التوصيات.
- ثبت المصادر والمراجع.

أولاً: التقديم لمراعاة السياق وحسن انتظام الكلام:

إن الناظر فى بستان القرآن الكريم ليجد نفسه فى حديقة غناء، لا يكاد يخرج من ثمرة إلا ويجد نفسه قد تعلقت بأخرى يستنشق عبيرها ويطعم رحيقها فى إذكاء روحى منقطع النظير..

والناظر فى السياق القرآنى يجد هذا الأسلوب هو "مادة الإعجاز فى كلام العرب كله، ليس من ذلك شئ إلا وهو معجز، وليس من هذا شئ يمكن أن يكون معجزا، وهو الذى قطع العرب دون

---

[1] عبد القاهر الجرجانى -دلائل الإعجاز- تحقيق محمد خفاجى- مكتبة القاهرة بمصر- 1980 - ص142.

[2] نفسه ص 143.

المعارضة".[1] والسياق القرآنى يحمل الكثير من الخصائص التريكبيه التى تسمو على لغة البشر قوة وصفاء ونقاء، وكان سياق التقديم والتأخير واحدا من فرائد القرآن وخصائصه، سيق لإبراز مقام الموقف بروحه وعمقه، وسوف نقف بإذن الله وتوفيقه مع بعض هذه السياقات:

التقديم فى بعض أسمائه سبحانه:

كتقديم (العزيز) على (الحكيم) لأنه تعالى عز فحكم كما فى قوله تعالى: [رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ] {البقرة129}.

وذلك أن معنى (العزيز) لا يغالب، والقادر الذى لا يمتنع عليه شئ أراد فعله. ومعنى (الحكيم) المدبر الذى يحكم الصنع ويحسن التدبير، فتكون القدرة متقدمة على حسن التدبير.[2]

وبالنظر فى الآية الكريمة نجد فيها ترتيبا آخر اقتضى تنظيم الأفعال داخل السياق فجاء الدعاء ببعث الرسول أولا (وابعث) ثم التلاوة (يتلو)، ثم التعليم (ويعلمهم) ثم التزكية والتطهير (ويزكيهم).. وفى ترتيب هذه الأفعال وتقديم بعضها على بعض أثر عميق فى النفس.. إذ يوحى اختيار كلمة البعث فى قوله (وابعث) بأنهم كانوا كالموتى فى أحوالهم، لا يشعرون بشئ من صالح الحياة، فيكون الرسول فيهم بمثابة بعثهم من رقادهم الجاهلى وبموتهم القلبى.. وقوله (منهم) ليكون أرفق بهم وأعلم بشئونهم وأحوالهم.. فإذا تحقق هذا جاءت المرحلة الثانية وهى التلاوة بما فيها من خشوع وتدبر وترقيق للقلب والنفس، ولذلك اقتضاها السياق إيثاراً على (يقرأ) مثلا، فإذا تحققت التلاوة بسياجها جاء التعليم الذى يشتمل على الكتاب أى القرآن الكريم وبما فيه من حكمه، أى فقه الشريعة وفهم التأويل، "وقيل: إن المراد بالآيات: ظاهر الألفاظ، والكتاب: معانيها، والحكمة: الحكم وهو مراد الله بالخطاب، والعزيز: الذى لا يعجزه شئ، قاله ابن كيسان، وقال الكسائى: العزيز: الغالب"[3]. ولهذا أكد الضمير المتصل فى: (إنك) بالضمير المنفصل (أنت) للدلالة على أنه لا غالب إلا الله تعالى، فهو -سبحانه وتعالى- غالب على أمره، يمضى أمره ويمكن لرسله، ولهذا اقتضى السياق فى ختام الآية قوله: (العزيز الحكيم) دون: العليم أو الخبير مثلا، ولأن لكل مقام مقال، فقد جاءت السياقات المشابهة لهذا المعنى بـ (العزيز الحكيم) نحو قوله تعالى: [فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ البَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {البقرة209}.

---

[1] الرافعى -إعجاز القرآن والبلاغة النبوية -ط4- مطبعة الاستقامة -القاهرة- 1945- ص 213 .

[2] جمعية الدعوة الإسلامية -1997- ص 312.

[3] الشوكانى: فتح القدير -تحقيق د. عبد الرحمن عميرة- ط2- دار الوفاء -المنصورة- 1997- 276/1.

فقد جاءت الآية على وجه التهديد والوعيد، أى: من ضل عن طريق الهداية وانحرف عن سبيل الحق بعد ما تبين له من البينات والحجج ما تبين {فاعلموا أن الله عزيز حكيم}، وهذا أبلغ فى إثبات الروع والمهابة، ولو جاء نوع العذاب محددا ما بلغ فى الحسن مبلغ قوله (عزيز حكيم)، أى غالب لا يعجزه الانتقام منكم، (حكيم) لا ينتقم إلا بحق، وروى أن قارئا قرأ غفور رحيم، فسمعه أعرابى فأنكره، ولم يقرأ القرآن، وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه"[1]

وإذا كان الزلل معناه التنحى عن طريق الحق والهداية، فإن أصله "الزلل فى القدم، ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك، يقال زَلَّ يزِلُّ زلا وزللا وزلولا، اى دحضت قدمه، وقرئ: "زَلِلْتم" بكسر اللام وهما لغتان"[2].

وقد جاء الفعل (جاءكم) مؤنثا بتاء التأنيث، لأن الفاعل مؤنث (البينات) أى: الحجج الواضحة والبراهين الصحيحة، وقد يأتى مذكراً مع (البينات) فى موضع آخر حسب اقتضاء المعنى، وذلك كما جاء فى قوله تعالى: [كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] {آل عمران86}.

فإن المقصود بالبينات فى هذا الموضع: القرآن الكريم، والله تعالى أعلم، لأن ما دلت عليه الكلمة كان مذكرا، فقد جاء قبلها قوله تعالى: [وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] {آل عمران85}.

وكل من هؤلاء الأنبياء.. أنزل عليه كتاب، والكتاب مذكر، ثم ورد فى الآية التالية لها، كلمة (الإسلام)، والإسلام مذكر، فما دلت عليه كلمة البينات كان.. مذكرا سواء أكان الكتاب أم كان الإسلام أم كان الكتاب والإسلام معا، ولهذا .. جاء فعلها .. مذكرا[3].

وقال تعالى فى موضع آخر من نفس السورة الكريمة: [وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] {آل عمران105}. فقدّم التفرقة على الاختلاف لأن الأولى سبب فى الثانية التى جاءت مترتبة عليها، فالاختلاف ناجم عن التفرقة وتابع لها، وهو ثمرة من ثمارها، وجاء الفعل (جاءهم) فى صورة المذكر، لأن "كلمة البينات التى وردت فى الآية تعنى الكتاب –كذلك– تعنى التوراة والإنجيل، وكل منهما كتاب"[4].

---

[1] الزمخشرى –الكشاف– تحقيق مصطفى حسين– ط3– دار الريان– القاهرة– 1987– 253/1..

[2] فتح القدير 374/1.

[3] د. عودة الله القيسى –سر الإعجاز– ط1– دار البشير – عمان – الأردن– 1996– ص61.

[4] د. عودة الله القيسى –سر الإعجاز– ط1– دار البشير – عمان – الأردن– 1996– ص61.

وتأتى مواضع تقديم العزة على الحكمة فى السياقات التى تتحدث عن قدرة الله تعالى ووحدانيته، وذلك نحو قوله تعالى: [هوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ] {آل عمران6}.

وقوله: [شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ] {آل عمران18}.

وقوله: [إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ] {آل عمران62}

وقوله: [إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ] {المائدة118}.

وقوله: [يا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ] {النمل9}.

هذا ويتقدم ذكر العزيز على الحكيم –أيضا– فى مقام تنزيه الله تعالى وخضوع الكون له –سبحانه– وذلك نحو قوله تعالى: [وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ] {الجاثية37}.

وذلك لأن السياق قبل هذه الآية، تحدّث عن عناد الكافرين وإعراضهم عن منهج الحق، فسلط الله عليهم عذاب النار لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون فناسب ذلك ذكر العزيز الذى لا يغلبه شئ ولا يفوته .. ويفعل ذلك عن حكمة ويقول تعالى:

[وَقِيلَ اليَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ولاَ همْ يُسْتَعْتَبُونَ]{الجاثية34–35}

وفى مقام التنزيه والتسبيح يقول الحق سبحانه:

[سبَّحَ للَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ]

{الحديد1}

[سبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ]

{الحشر1}

[هوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ] {الحشر24}

فناسب هذا المقام ذكر العزيز على غيره من الأسماء والصفات، وناسبه التقديم على (الحكيم)، لئلا يتوهم أحد أن الله تعالى بحاجة إلى من يسبحه أو ينزهه، بل هو منزه بذاته، قدّوس بجلاله، عزيز بقوته وجبروته وحكمته.. وقد جاء فعل التسبيح بالماضى (سبح لله) كما فى أول الحديد والحشر (والصف أيضا)، وخُتمت سورة الحشر بالمضارع (يسبح)، وافتتحت بها سورة الجمعة: [يسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ] {الجمعة1}. لأن هذه الكلمة "استأثر الله بها، فبدأ بالمصدر فى بنى اسرائيل (سورة الإسراء) فقال تعالى: (سبحان الذى أسرى بعبده..) لأنه الأصل، ثم بالماضى لأنه أسبق الزمانين، ثم بالمستقبل، ثم بالأمر فى سورة الأعلى (سبِّح اسم ربك الأعلى)، استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها وقوله تعالى: (لله ما فى السموات والأرض)، وفى السور الخمس: (لله ما فى السموات وما فى الأرض): بإعادة (ما) وهو الأصل، وخُصَّت هذه السورة بالحذف موافقة لما بعدها وهو: [لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] {الحديد2}، لأن التقدير فى هذه السور: (سبح لله كل السموات والأرض) وكذلك قال فى آخر الحشر بعد قوله: (الخالق البارئ المصور): [هوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ] {الحشر24} أى خلقهما[1].

وتأتى –أيضاً– مواضع تقديم العزة على الحكمة فى السياقات التى تتحدث عن النصر، وذلك نحو قوله تعالى:

[وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ] {آل عمران126}.

وقوله: [وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {الأنفال10}.

فقّدم البشرى على الطمأنينة فى سياق أسلوب القصر بالنفى والاستثناء الذى تكرر مرتين، لأن الطمأنينة ناتجة عن البشرى التى تبعث السرور والراحة فى النفس فتنشأ الطمأنينة بالتبعية، وجاء التعبير بلفظ الجلالة (الله) لإثبات مقام العزة وغلبة أمر الله فى دحض المشركين..

---

[1] الكرمانى – البرهان فى متشابه القرآن – تحقيق أحمد خلف الله –ط2– دار الوفاء بالمنصورة – 1998 – ص308.

وقد جاءت الآية فى (آل عمران) "بإثبات (لكم) وتأخير به وحذف أسلوب (إن الله). وفى آية (الأنفال) بحذف (لكم) وتقديم (به) وإثبات (إن الله)؛ لأن البشرى هنا للمخاطبين، فبيّن وقال: (لكم). وفى الأنفال قد تقدم (لكم) فى قوله تعالى: [إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ] {الأنفال9}. فاكتفى بذلك.[1]

وفى مقام الحديث عن نصر الله لنبيه ε والتمكين له فى الأرض ودحض كلمة الكافرين، تقدّم ذكر العزيز على الحكيم، يقول تعالى: [إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {التوبة40}.

فجاء التعبير بالفعل الماضى الدال على التحقيق واليقين فى الحديث عن النصر: فقد نصره الله –فأنزل– وأيده– وجعل.. بينما جاء التعبير بالمضارع فى تصوير مشهد الغار (إذ يقول لصاحبه لا تحزن..) وذلك لاستحضار صور المشهد بملابساته وما أحيط بهما من مخاطر أدت إلى فزع أبى بكر الصديق رضى الله عنه الذى نال شرف الكناية عنه فى قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وذلك فى قوله تعالى: (إذ يقول لصاحبه).

وفى مقام الحديث عن كلام الله تعالى والقرآن الكريم وتنزيله من السماء يتقدم –أيضا– ذكر العزيز على الحكيم، كما فى قوله تعالى: [وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {لقمان27}.

فلو جعلت الأشجار التى فى الأرض أقلاماً لكتابة كلمات الله، وجعل مداها البحر المتصل بمدار سبعة أبحر أخرى، فإن تلك الأقلام ومعها المداد تنفد دون أن تنفد كلمات الله.

وجاء التعبير بالشجرة على الإفراد دون الجمع لإرادة (تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلاما، فإن قلت: الكلمات جمع كلمة، والموضع موضع التكثير لا التقليل فهلا قيل: كلم الله؟ قلت: معناه أن كلماته لا تفى بكتبتها البحار، فكيف بكلمه؟"[2]

ومما ورد من تقديم العزيز على الحكيم فى مقام ذكر القرآن الكريم وتنزيله، وقوله تعالى: [حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ] {الجاثية 2،1} ؛ [حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ] {الأحقاف 2،1}.

---

[1] الكرمانى – البرهان فى متشابه القرآن– ص 136 .

[2] الكشاف –501/3.

هذا وقد يأتى ذكر (العليم) متقدما على (الحكيم) فى مواضع أخرى تبعا لاقتضاء المقام وحاجة السياق، وهذا كثير فى القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى [قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ] {البقرة 32}.

وقوله تعالى [وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ] {النساء 12}

وقوله تعالى: [وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً] {النساء 32}.

فجاء الخبر بـ : (عليم) والصفة بـ: (حليم) ليناسب سياق الآية قبلها، فقد كانت تتحدث عن الميراث والوصية التى تكون أحد أنريم: عدل أو جور.. فجاء التحذير بأن الله تعالى يطلع على ذلك ويعلمه.. وهو سبحانه (حليم) عن الظالم والجائر، فلا يعجل عليه بالعقاب عساه أن يرجع إلى رشده إذا ظلم فى وصيته، وفى الآية نكتة بلاغية أخرى ألا وهى تقديم تنفيذ الوصية على وفاء الدين، "فإن وفاء الدين سابق على الوصية، ولكن قدّم الوصية، لأنهم كانوا يتساهلون بتأخيرها، بخلاف الدين"[1]

وفى مقام آخر يقول تعالى: [يرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] {النساء 26}.

فهو سبحانه (عليم) بأمور الخلق وما يناسبهم ويصلحهم، وهو يهديهم إلى الرشاد بعلمه المحكم وحكمته البالغة، ولذلك تغاير السياق هنا، وجاءت الحكمة رديف العلم، وجاء الحلم رديف العلم فى سياق الآية السابقة للمعنى المشار إليه آنفاً.

وربما جاءت آيات أخرى حاملة فى سياقاتها أسلوباً آخر على خلاف ما سبق، تقدم فيه (الحكيم) على (العليم) لعلة يقتضيها السياق، وذلك نحو قوله تعالى: [وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ] {الأنعام 83}.

---

[1] الزركشى -البرهان فى علوم القرآن- تحقيق محمد أبو الفضل- دار التراث- القاهرة- 265/3.

فسبق الحكم هنا العلم، لأن المقام اقتضى ذلك من خلال الحديث عن الحكمة التى لقنها الله –تعالى– نبيه إبراهيم، وأشار إليها بقوله: (وتلك) فاستطاع أن يحتج بها على قومه، وكان أن نال من الله الرفعة فى الدرجات، وذلك بمقتضى الحكمة الإلهية فى تصريف الشئون والأحوال.

ومثال ذلك قوله تعالى:

[وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ] {الزخرف84}.

فاقتضى المعنى أن تسبق الحكمة العلم فى هذا السياق –أيضا– لأن الآية الكريمة تتحدث عن صفة الألوهية، وما يتصف به الله –عز وجل0 من حكمة فى تصريف الكون وتشريع الأحكام.. وقد (ضمن أسمه تعالى معنى وصف، فلذلك علق به الظرف فى قوله: (فى السماء) (وفى الأرض)، كما تقول: هو حاتم فى طىّ حاتم فى تغلب، على تضمين معنى الجواد الذى شهر به، كأنك قلت: هو جواد فى طى جواد فى تغلب"[1].

وقد سبق الحكم العلم –أيضا– فى موضع آخر فى قوله تعالى:

[قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ] {الذاريات30}.

فهذا مقام من مقامات التصريف الإلهى العجيب –أيضا– وهو يحمل غرابة الموقف واستحالة حدوثه فى العرف البشرى، وكان أن كان، وولدت العجوز من الشيخ الهرم!.

وفى موضع لا نظير له فى القرآن يتقدم (علىّ) على (حكيم) وذلك فى قوله تعالى [وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ] {الشورى51}.

والمعنى: تعالى عن أن يُكلِّم أو يكلَّم شفاها، حكيم فى تقسيم وجوه التكليم[2] ولتمام هذا المعنى وإحكامه، صُدِّرت الآية بأسلوب القصر المتمثل فى النفى والاستثناء، ثم توالت النكرات فى سياقها لإفادة العموم: لبشر –وحيا– حجاب– رسولا، وذلك فى ظلال الإيقاع الصوتى الناشئ من قوله: وحيا.. فيوحى، أو يرسل رسولا.

وفى سورة المجادلة تبادلت الكلمات المواضع تبعا للمعنى الوارد فى السياق، ففى قوله تعالى: [وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن

---

[1] الكشاف 267/4.

[2] البرهان فى متشابه القرآن – ص297.

يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] {المجادلة 3} وقال –أيضا– فى نفس السورة: [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] {المجادلة11} وقال –جل شأنه– فى نفس السورة أيضاً: [أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] {المجادلة13}.

فالموضع الأول والثانى يتعلقان بالعمل، فلا يمس الرجل زوجته التى ظاهر منها إلا بعد تحرير رقبة فى الموضع الأول، والثانى يتعلق بعمل التفسح فى المجالس والنشوز والارتفاع عنها.. أما الموضع الثالث فلا يتعلق بعمل، وإنما يتعلق بالتخفيف الذى نزل إلى المؤمنين ورفع عنهم أمر الله بتقديم الصدقات عند مناجاة النبى ε لعلمه –سبحانه– بمشقة هذا الأمر عليهم، فهو خبير بالنفوس وخفايا القلوب.

تقديم السمع:

اطّرد تقديم السمع فى القرآن الكريم سواء أكان على البصر أو الرؤية أو العلم أو القرب.. فى شأن الخالق أو شأن المخلوقين.. وذلك نحو قوله تعالى:

[قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ] {الأنعام46}.

[سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ] {الإسراء1}.

[قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى] {طه 46}.

وفى مجال تقديم السمع على العلم وما جرى مجراه قد أتى فى اثنين وثلاثين موضعاً، هى كل ما جاء فيه[1]، وقُدِّم السمع على القرب فى قوله تعالى:

---

[1] المواضع هى: سبع آيات فى البقرة: 127، 137، 181، 224، 227، 244، 256. وثلاث فى آل عمران: 34، 35، 121، وواحدة فى النساء: 148، وآية واحدة فى المائدة: 76، واثنتان فى الأنعام، 13، 115، وآية واحدة فى الأعراف: 20، وأربع آيات فى الأنفال: 17، 42، 53، 61، وآيتان فى التوبة: 98، 103، ثم يونس 65، يوسف، 34، الأنبياء 4، وآيتان فى النور 21، 60، ثم الشعراء 220، وآيتان فى العنكبوت 5، 60، ثم فصلت 36، والدخان 6، والحجرات 1.

[قلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ] {سبأ50}.

ولا يقف سر هذا التقديم عند تشريف المقدم على المؤخر، ولكن المقام يحتمل تفسيراً آخر.. فتقديم السمع على البصر لكونه أهم منه، لأن ما يحصل من ضروب المعرفة عن طريق السمع لا يحصل عن البصر، والبصر يتوقف فى تحصيله للعلم على وسائط لا يتوقف عليها السمع[1].

وقد ورد فى القرآن الكريم بعض آيات تقدّم فيها البصر على السمع لعلة يحملها السياق، ومن ذلك قوله تعالى:

[قلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً] {الكهف26}.

فتقدم البصر على السمع على خلاف المعتاد فى آيات الذكر الحكيم، لأن الحديث –والله تعالى أعلم– يختص بجناب الله تعالى وقدرته على العلم بدقائق الأشياء، فيستوى عنده كل شئ، يقول الزمخشرى: وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات، للدلالة على أن أمره فى الإدراك خارج عن حدّ ما عليه إدراك السامعين والمبصرين، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجما وأكثفها جرما، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر"[2].

وفى سياق الحديث عن الكافرين خصوصا فى مشهد القيامة وساحة العرض، يتغير –أيضا– ترتيب السمع والبصر ليتقدم الأخير، يقول تعالى:

[وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُماً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً] {الإسراء97}.

وقوله تعالى:

[وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ]{السجدة 12}.

---

[1] د. عبد العظيم المطعنى –خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية– ط1 – مكتبة وهبة– القاهرة– 1992– ص 107-108.

[2] الكشاف 716/2.

فلم يعد هناك وجه انتفاع بسمع يفيد الطاعة والصلاح، بل لعله قدم البصر فى مثل هذه المشاهد لينبئ عن حالهم من الإعراض وعدم الاقتناع اللازم لثبوت اليقين، وكأنهم كانوا فى ريب من ذلك اليوم، وهاهم أولاء قد رأوه بأعينهم.

الجن والإنس:

الجن والإنس من المخلوقات التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم كثيرا، وقد جاءت على غير نسق واحد، بل جاءت بعض السياقات قُدّم فيها الجن على الإنس، وأخرى قُدّم فيها الإنس على الجن، وذلك تبعا لاقتضاء المقام وتحرير المعنى، فمن السياقات التى ورد فيها ذكر الجن مقدما، قوله تعالى:

[وَيَوْمَ يَحْشُرُهمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ] {الأنعام128}.

فالخطاب هنا واقع فى يوم الحشر، وهو موجه إلى الجن على سبيل التبكيت على ما فعلوه من الاستكثار من الإنس وغوايتهم، ولمزيد من التحقير حذف فعل القول أو النداء والتقدير.. ويوم يحشرهم جميعا فينادى عليهم أو فيقال لهم والله تعالى أعلم.

وفى سورة الذاريات حملت الآية جملة خبرية مقتضاها أن خلق الجن والإنس هو من أجل عبادة الله وحده، فقدّم ذكر الجن لسبقه فى الخلق، وذلك فى قوله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ] {الذاريات56}.

وكذلك الشأن إذا جاء ذكر الإنس مقدما على الجن (فلابد من سبب فى السياق اقتضى ذلك، قال تعالى: [قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً]] {الإسراء88}.

فقدم الإنس عل الجن لأن التحدى وقع على الناس أولا حيث أن الرسول ε مبعوث أصلا إلى الناس.. ويعضد التقديم –أيضا– ما جاء بعد الآية المذكورة"[1] قال تعالى: [وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (89) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً (90)] {الإسراء89–90}.

تقديم السماء على الأرض:

---

[1] د. محمد الكواز – الأسلوب فى الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم – ص 319.

عندما تُقدم السماء على الأرض فهذا هو الأصل الوارد فى سياقات القرآن، وهو لحكمة يقتضيها السياق ويتطلبها المقام، كقوله تعالى:

[إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] {فاطر38}.

ولا شك فى أن ما غاب فى السموات كان أعظم وأكثر وأشمل، فقدّم ذكرها، ثم قال فى نفس السورة: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً] {فاطر40}.

فذكرت الأرض أولا لأنه فى "سياق تعجيز الشركاء عن الخلق والمشاركة، وأمر الأرض فى ذلك أيسر من السماء بكثير، فبدأ بالأرض مبالغة فى بيان عجزهم، ثم قال سبحانه: [إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً] {فاطر41}، فقدّم السموات تنبيها على عظم قدرته سبحانه، لأن خلقها أكبر من خلق الأرض"[1].

وبالنظر إلى سياق الآيات السابقة نجد أن السموات مقدمة على الأرض، وهذا هو الكثير المعتاد فى آيات القرآن الكريم، وقد "تُقدم الأرض على السماء خلافا لهذا الأصل، تبعا لاقتضاء السياق كما فى قوله تعالى: [الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] {البقرة22}.

والله تعالى أعلم فبدأ بذكر الأرض لأنها أقرب إلى النظر والتأمل وفيها المستقر والمعاش والفراش، وقد وردت هذه الآية فى سياق توجيه النظر إلى وجوب عبادة الله وحده وشكره على نعمه، فقال تعالى قبل هذه الآية: [يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] {البقرة21}.

وقوله: [.. وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ] {يونس61}.

---

[1] الزركشى فى البرهان 285/3.

لأن الكلام قبل الآية على أهل الأرض[1]، حيث قال تعالى: [وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ..] {يونس61}.

وقال الزمخشرى: فإن قلت: لم قدّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله تعالى سورة سبأ: [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ]{سبأ3} قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله (لا يعزب عنه) لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء، على أن العطف بالواو حكمه حكم التثنية"[2]

وقدّم ذكر الأرض على السماء –أيضا– فى سورة إبراهيم فى قوله تعالى:

[رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ] {إبراهيم38} فقدم ذكر الأرض أولاً "لأنها خلقت قبل السماء، ولأن هذا الداعى فى الأرض. وقدَّمت الأرض فى خمس سور: آل عمران الآية 5 – ويونس الآية 61 – وإبراهيم الآية 38 – وطه الآية 4 – والعنكبوت 22. [3] ولم يذكر الكرمانى الموضع السادس الوارد فى آية 40 من سورة فاطر!.

وقد تتقدم الكلمة فى القرآن الكريم لاقتضاء المقام وسياق الأسباب التى ينبغى للمتأمل أن يراها ويعلمها، كتقديم غض البصر على حفظ الفروج، كما فى قوله تعالى:

[قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ] {النور30}.

فالغض من البصر سبيل عفة الفروج وحفظها، وهى سبب –أيضا– عدم حفظها، ولهذا قدم الغض من البصر على حفظ الفروج للتنبيه على شدة أثرها فى إثارة النفس ومن ثم فالحث على فضيلة غض البصر من أجل العفة.. وقال الزمخشرى "فإن قلت: لم قدّم غض الأبصار على حفظ الفروج؟ قلت: لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر"[4]

---

[1] د. محمد الكواز – الأسلوب فى الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم – ص313.

[2] الكشاف 355/2.

[3] الكرمانى – البرهان فى متشابه القرآن– ص213.

[4] الكشاف 230/3.

وقد يكون التقديم لتعظيم المقدم وتشريفه، بتقديم لفظ الجلالة على الرسول ε فى قوله تعالى: [وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً] {النساء69}.

وفى الآية الكريمة إجمال فى قوله: (أنعم الله عليهم) ثم تفصيل: (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) وفيه إثارة ذهنية وتشويق نفسى للوقوف على تعريفهم، فإذا استشرفت النفس لهذا وتهيأت له، وقفت على الترتيب من حيث العظمة والتشريف.. الأول فالأول: (النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

وقد يكون التقديم للفت الانتباه لعظم الرسالة وشرفها على النبوة، كما فى قوله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] {الحج52}، فقد ظهر من الآية عدم المساواة فى القدر والمنزلة بين الرسول والنبى ، فالرسول "من جمع إلى معجزة الكتاب المنزل عليه. والنبى غير الرسول: من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله"[1]

وقد يكون التقديم على عكس ما سبق، فيتقدم ذكر الكلمة من أجل بيان سوء المصير وتحقيره والتنفير منه، وذلك كما فى قوله تعالى:

[يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ(105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ(106)] {هود105-106}.

فتصدير الآية بكلمة (يوم) مع تنكيرها أبلغ فى الروع والفزع، وفى نفى الكلام عن النفس على عمومها -كما أفاد التنكير أيضا- فى سياق أسلوب القصر بالنفى والاستثناء والتعبير بالمضارع (يأت) لاستحضار الصورة مزيد من إضفاء هذا المشهد بجلاله ومهابته.. ثم بعد هذا الحشد البلاغى يأتى التقسيم والتفصيل: (فمنهم شقى وسعيد) مع تقديم الشقى للسبب السالف ذكره.. وهذا -أيضا- فيه إجمال، أتى بعده التفصيل الآخر الذى تناول الشقى بتكرار ذكره وبيان مكانه (ففى النار) لتكون وعاء لهم، يعيشون فيها حياتهم بالزفير والشهيق، وهو ما عرفوه فى حياتهم الدنيا ومارسوه، ليستحضروا بذلك المشهد الحياة الحقيقية داخل النار -عياذا بالله-.

وقد تأتى الكلمة مقدمة لبيان الترتيب والسبق:

---

[1] الكشاف 164/3.

فمن حيث السبق فى الزمان: قوله تعالى: [إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى] {آل عمران68}.

ومن حيث السبق فى الإيجاد: قوله تعالى: [لا تأخذه سنة ولا نوم] {البقرة255}. لأن العادة فى البشر أن تأخذ العبد السنة قبل النوم، فجاءت العبارة على حسب هذه العادة. ذكره السهيليّ وذكر معه وجها آخر؛ وهو أنها وردت فى معرض التمدح والثناء وافتقاد السنة أبلغ فى التنزيه فبدأ بالأفضل؛ لأنه إذا استحالت عليه السنة فأحرى أن يستحيل عليه النوم"[1]

وقد تتقدم الكلمة من موقعها فى السياق بعدما جاءت فى صدر الآية على خلاف ذلك، كقوله تعالى: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ..] {البقرة143}.

فقد تأخر المتعلق على شبه الفعل فى قوله (شهداء على الناس) وتقدم فى قوله (عليكم شهيدا) وذلك لأن الغرض فى الأولى إثبات شهادتهم على الأمم وليس فيها معنى الاختصاص، وفى الثانية اختصاصهم يكون الرسول شهيدا عليهم وليس مجرد إثبات شهادته عليهم.[2]

ومن ذلك قوله تعالى: [يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ] {آل عمران106} فصدر الآية جاء فى سياق المقابلة على هيئة الإجمال ثم التفصيل الذى بدأ بالذين اسودت وجوههم، فى حين أن البداية كانت بالذين ابيضت وجوههم، وفى ذلك تلوين للخطاب لإدخال البشر والتفاؤل أولا لتعظيم هذه الفئة ثم الانتهاء بذكرهم أيضا تعظيما وتشريفاً، ولذلك بدأ التفصيل بما انتهى إليه الإجمال. والله تعالى أعلم.

-ومن ذلك- أيضا- قوله تعالى: [الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة]ثم قال جل شأنه: [الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك] {النور 2-3}.

قدّم (الزانية) فى السياق الأول لأن الكلام كان عن حد الزنا وهو الجلد، وفيه لفت للنظر وإيحاء للبشر للمحافظة على عفاف المجتمع عن طريق صيانة المرأة، لأنها إذا فسقت كانت سببا فى

---

[1] البرهان للزركشى 240/3.

[2] د.محمد أبو موسى -خصائص التراكيب- ط4 -مكتبة وهبة- القاهرة- 1996- ص364.

انتشار تلك الجريمة، أما المقام الثانى فكانت بداية الآية فيه بالرجل (الزانى) وهى مسوقة (لذكر النكاح، والرجل أصل فيه، لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب"[1].

-ومن ذلك أيضا- قوله تعالى: [وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ] {الجمعة 11}.

تقدمت التجارة على اللهو أولا ثم تأخرت ثانيا.. ربما كان الاعتبار هنا فى هذا المقام على أنها بمثابة الشئ الواحد، لأن السياق أفاد ذم هذا الفعل واستنكاره، وبدليل أنه قال: (انفضوا إليها) ولم يقل: انفضوا إليهما، لأن الإنسان إذا ترك خطبة الجمعة وانصرف إلى التجارة فقد فعل اللهو والعبث، فما بالنا إذا كان هذا مع النبى ε ؟! هذا ومن المعلوم أنه لا يجوز أثناء الخطبة مجرد الكلام أو العبث بالثياب ونحوه، فما الأمر إذا كان الخروج للتجارة التى كان يصاحبها الطبل وقتذاك؟! فقدّم اللهو فى المرة الثانية للتنبيه على قبح فعلهم وشنيعه.

ثانيا: التقديم للاختصاص:

قد يتقدم المفعول على فعله أو يتقدم الجار والمجرور أو الظرف والحال ونحو ذلك لأجل فضيلة الاختصاص ، وهو "إما بالتعيين فى التردد، أو بردّ الخطأ، أى خطأ السامع فى تعيين المفعول ونحوه إلى الصواب، وهو المراد من التخصيص، كما فى اعتقاد العكس أو الاشتراك كقولك: زيدا عرفت، لمن تردد، إشارة إلى أنه اعتقد أنك عرفت إنسانا، لكن يتردد فى تعيين أنك زيدا عرفت أم عمرا، فقولك زيدا عرفت، تعيين وتخصيص، أو لمن أخطأ فى اعتقاده، بأن اعتقد أنك عرفت عمرا دون زيد، على عكس عرفانك، فقولك زيدا عرفت، يفيد الاختصاص برد الخطأ"[2] وإذا قلنا الماء شربت لا غيره، فهذا من الاختصاص الذى يشمل: قصر القلب والإفراد والتعيين.

تقديم المفعول:

ورد تقديم المفعول على فعله أو فاعله لمزية يقتضيها المعنى المراد بثه فى النفوس، ومن ذلك قوله تعالى:

[سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ] {الأعراف177}.

فلو جاء السياق مثلا: كانوا يظلمون أنفسهم لما تحققت مزية تخصيص أنفسهم وحدهم بالظلم، فجأة

---

[1] الكشاف 212/3.

[2] الحسن بن عثمان المفتى -خلاصة المعانى- تحقيق د. عبد القادر حسين -دار الاعتصام- 1993- ص216.

"تقديم المفعول به للاختصاص، كأنه قيل: وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّها إلى غيرها"[1] وهنا إبراز للنفس التى ظلمت وتخيّل لأثره عليها.

ومن ذلك قوله تعالى: [سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ] {إبراهيم50}

ففى قوله: (وجوههم) مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث ذكر الجزء، وهو الوجوه، ذكر الحاصل هو أن النار تغشى جميع أبدانهم، ولكن فى تخصيص ذكر الوجوه وتقديمها لفت للانتباه لما يلحقهم من المهانة والذلة وهم الذين أرادوا الوجاهة والمنزلة فى قومهم، ومن فى قوله: (من قطران) بيانية أى من هذا الجنس.

تقديم الجار والمجرور:

قد يقع الظرف خبرا، أو يتقدم الجار الأصلى فيكون خبرا، وحينئذ "يُشترط فى الظرف الواقع خبرا، وفى الجار الأصلى مع المجرور كذلك –أن يكون تاما، أى: يحصل بالإخبار به فائدة بمجرد ذكره، ويكْمُل به المعنى المطلوب من غير خفاء ولا لبس"[2] ولابد للظرف أو الجار والمجرور من متعلق حتى تتم الفائدة أو المعنى، وإلا لم يكن منهما فائدة.. وسوف نقف مع بعض النماذج القرآنية لنرى ما أفاء الله به من أسرار بلاغية لهذا التقديم.

يقول تعالى: [أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ] {التوبة63}.

لقد حملت الآية الكريمة على من يحادد الله ورسوله، فكان الزجر والوعيد الناشئ عن الاستفهام فى صدر الآية.. وتوكيد "الخبر بأنَّ واسمية الجملة لأن المنافقين مع علمهم بهذه الحقيقة نُزّلوا منزلة من يجهلها وينكرها لعدم جريهم فى الاعتقاد والسلوك وفق ما يقتضيه علمهم. وتقديم الخبر (له) على اسم (أن): (نار جهنم) لإفادة القصر، أى له لا لغيره، والإفراد فى (له) و (خالدا) مراد به العموم"[3].

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى: [قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا

---

[1] الكشاف 179/2.

[2] عباس حسن –النحو الوافى –ط12– دار المعارف بمصر– 1995– 478/1.

[3] د.عبد العظيم المطعنى –التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم– 19/2.

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)] {إبراهيم11-12}.

ففى تقديم الجار والمجرور فى لفظ الجلالة: (وعلى الله) فى الآيتين لإفادة القصر والتخصيص، أى: التوكل والاعتماد لا يكون إلا على الله لا على غيره.. وجاء لفظ المؤمنون فى الآية الأولى لأنه أمر من رسلهم للمؤمنين الذين آمنوا بالتوكل على الله وحده، وهذا من علامة الإيمان الصادق.. وجاء لفظ (المتوكلون) فى الآية الثانية، ليكون معناه: "فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم"[1].

ومن ذلك أيضا ما جاء فى نفس السورة قوله تعالى:

[وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ] {إبراهيم21}.

جاء تقديم (لكم) على (تبعا) لإفادة تخصيص التبعية لهم وقصرها عليهم دون غيرهم وحبس حياتهم رهن إشارتهم وفيه إظهار مدى ندامتهم وحسرتهم على تلك التبعية لسادتهم الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا عنهم ولا عن أنفسهم شيئا وقد هلك الجميع.

ومما جاء من تخصيص الملُك والحمد بالله وحده دون غيره قوله تعالى:

[يسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] {التغابن1}.

وقد وقف ابن الأثير –رحمه الله– أمام بعض الآيات الواردة فى مثل هذه السياقات السابقة ورفض أن تكون للاختصاص، ونعى على من احتسبها كذلك، كتقديم الظرف فى قوله تعالى:

[وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ] {الشورى10}

[صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ] {الشورى53}

[وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) {القيامة22-23}

[وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)] {القيامة29-30}

---

[1] الكشاف 544/2.

فقال ابن الأثير: فإن هذا روعى فيه حسن النظم، لا الاختصاص، فى تقديم الظرف، وفى القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك"[1].

ولا عجب أن يكون التقديم فى تلك الآيات للاختصاص مع إفادة الغرض الذى أشار إليه، لأن المعنى يقتضى ذلك ويتطلبه، فكيف لا نقول أن تقديم (عليه) على (توكلت) يفيد قصر التوكل على الله لا على غيره؟!، وكذلك الإنابة إليه دون غيره؟!، وهذا من كمال التوحيد ونقاء العقيدة.. ولو فرضنا السياق جاء على غير هذا التقديم، وكان مثلا: توكلت عليه وأنبت إليه، لافتقد السياق مزية حسن النظم، وجلاء المعنى –أيضا– فإن الجملة الأخيرة التى تأت على التقديم لتفيد أن التوكل عليه وعلى غيره أو الإنابة إليه ولا يمنع أن تكون إلى غيره! ولكن بالتقديم سدت جميع الأبواب، وقصرت التوكل على الله وحده والإنابة إليه وحده دون غيره.

وفى آية الغاشية التى رفض ابن الأثير جعلها للاختصاص، قد ناقض نفسه بقوله: "أى: تنظر إلى ربها دون غيره، فتقديم الظرف هنا ليس للاختصاص"[2]!!.

فكيف لا يكون تقديم الظرف للاختصاص، وهو يقول: تنظر إلى ربها دون غيره؟!، ويقول الزمخشرى: ألا ترى إلى قوله تعالى: {إلى ربك يومئذ المستقر} ، {إلى ربك يومئذ المساق}، {إلى الله تصير الأمور}، {وإلى الله المصير}، {وإليه ترجعون}، {عليه توكلت وإليه أنيب}، "كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص"[3].

ومما جاء من التقديم لإفادة التخصيص ورعاية الفاصلة، قوله تعالى: [بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ]{البقرة90}.

[وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ] {النساء14}.

ومنه –أيضا– قوله تعالى:

[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ] {الروم47}.

---

[1] ابن الأثير– المثل السائر– تحقيق محى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت – 1995– 40/2.

[2] ابن الأثير– المثل السائر– تحقيق محى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت – 1995– 39/2.

[3] الكشاف 662/4.

فتقديم التوكيد (حقا)، وتقديم خبر كان (علينا) لإشعار المؤمنين بالنصر المحقق الذى لامريه فيه.. وفى هذا ترسيخ للعقيدة وحسن التوكل على الله والثقة فيه لا فى غيره، عندما يشعر المؤمن بأن النصر مختص بالله مقصور عليه سبحانه.

ثالثا: التقديم بين الآية والآية:

فى هذه الوقفة نرى أسراراً أخرى لأسلوب التقديم مغايرة للمواضع السابقة، والمقصود بهذا التقديم الذى يأتى بين الآية والآية هو ما ننظر إليه من حيث تقديم صيغة على أخرى فى بعض آيات السورة الواحدة، أو تقديم آية على آية فى النزول، أو تقديم موضع على أخر فى السورة الواحدة، أو التقديم والتأخير فى المتشابه.

أولا: تقديم صيغة على أخرى فى بعض آيات السورة الواحدة:

وقد ورد ذلك فى بعض المواضع من آيات الذكر الحكيم لعلة يقتضيها السياق ويتطلبها المعنى، وذلك نحو قوله تعالى: [يمْحَقُ اللَّـهُ الرِّبَا وَيُرْبِـي الصَّدَقَاتِ وَاللَّـهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ] {البقرة276}.

وقوله تعالى:

[وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَـةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّـهَ رَبَّـهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّـهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ] {البقرة283}.

فقد وردت صيغتان فى الآيتين وهما: آثيم– آثم، وتقدمت الصيغة الأولى على الثانية للفارق المعنوى بينهما.. فـ: (أثيم) صفة مشبهة باسم الفاعل، وهى صيغة مبالغة تفيد الإقامة على فعل ذلك الإثم والإصرار عليه والتمعن فيه بلا مبالاة، وأثيم: من قوم أثماء، والأثيم: الفاجر[1].

وقد وردت صيغة (أثيم) فى سياق الحديث عن الربا ومحقه والنفير منه، قال الزمخشرى فى قوله تعالى: (كل كفار أثيم): تغليظ فى أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار (قوم أثماء) لا من فعل المسلمين[1].

---

[1] ابن منظور –لسان العرب– بإشراف أ. على مهنا– ط1 –دار الكتب العلمية –بيروت– 1993– مادة (أثم).

أما الآية الأخرى فقد وردت فى سياق النهى عن كتمان الشهادة {**ولا تكتموا الشهادة**} ثم الوعيد من التهديد عن طريق أسلوب الشرط {**ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**} .. وكتمان الشهادة أقل جرما من تعاطى الربا وممارسته الذى يتأذى منه المجتمع كله، بينما تأتى ثمرة كتمان الشهادة المرة على الأفراد.. وقد أسند الإثم إلى القلب لأن كتمان الشهادة (هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان إنما مقترفا بالقلب أسند إليه، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ، ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عينى، ومما سمعته أذنى، ومما عرفه قلبى، ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه"[2]

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى: [قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ]{الأنعام63}.

وقوله: [قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ] {الأنعام64}

فقد وردت صيغتان فى الآية الكريمة: ينجيكم –أنجانا، وقدّم الأولى على الثانية لاقتضاء المعنى الذى ينتقى الألفاظ ويحددها، فإن "الألفاظ فى القرآن نزلت من لدن القدرة الإلهية معبرة عن معانيها الدقيقة، فإذا وردت مادة بصيغتين أو أكثر، فليس ذلك فراراً من التكرار، وإنما يحدث لأن كل صيغة تعبر عن معنى لا تعبر عنه الصيغة لأخرى، مهما تقاربتا"[3]

فالصيغة الأولى التى جاءت بالتشديد (ينجيكم) إنما جاءت فى جناب الله وحقه، وجاءت فى صيغة الاستفهام المجاب عنه فى الآية التى تلتها مباشرة {**قل الله ينجيكم**}، فهى نجاة بالغة العظمة والقدرة، وهى تستمر نجاة بعد نجاة.. أما الصيغة الثانية فقد كانت دعاء منهم، "وكانت (أنجى) دالة على قلة احتمال حدوث النجاة، فقد سبقها (لئن) وأداة الشرط (إن) تأتى لتقليل حدوث فعل الشرط، ولهذا بالغوا فى جواب (لئن) عن طريق التوكيد باللام ونون التوكيد الثقيلة: (لنكونن) رغبة فى تقوية حدوث فعل الشرط الذى تتوقف على حدوثه حياتهم"[4].

ومن ذلك ما جاء –أيضا– فى سورة غافر فى قوله تعالى:

[وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ

---

[1] الكشاف 321/1.

[2] نفسه 329/1.

[3] د.عودة الله منيع– سر الإعجاز ص 118.

[4] د. عودة الله القسى –سر الإعجاز ص119.

صَـادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّـذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّـهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ] {غافر28}

فتقدّمت صيغة اسم الفاعل (كاذبا) على صيغة المبالغة (كذاب)، فالأولى وقعت فى سياق يوحى بانتفاء الكذب من أصله لتقديم قوله: {وقد جائكم بالبينات من ربكم}، فكيف بمن جاء بالبينات من ربه أن يكون متصفا ولو أدنى اتصاف بالكذب؟!، ولذلك جاءت الصيغة (كاذبا) فى سياق (إن) الشرطية مع حذف النون من (يك) فلم يقل يكن وهو الأصل ليشعر بانتفاء ذلك، هذا بالإضافة إلى تنكير (كذبا) فى سياق الشرط لإفادة العموم، أى: وإن يك كاذبا كذبا ما، يعنى: إن وُجد ذلك من أصله.

أما صيغة (كذّاب) فهى لإفادة المبالغة كما سبق ذكره، وهى ترسم صورة لهذا الذى يمارس الكذب ويتعاطاه فى كل أحوال حياته، حتى استحق تعريفه بالمسرف، وعدم الهداية من الله [إنَّ الله لا يّهْدِى من هو مُسْرِفٌ كَذَّابُ].

-ومن ذلك- أيضا- ما جاء فى سورة التحريم فى قوله تعالى:

[وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّـهُ عَلَيْـهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ] {التحريم3}.

فجاءت صيغة (نبّأها) متقدمة على (أنبأك) ثم أعديت صيغة (نبأنى) مرة أخرى، لأن الصيغتين (نبأ) فى حق النبى ص، وما ينبئ به فهو حق اليقين لأنه لا ينطق عن الهوى، و (من أنبأك) حكاية عن كلام أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، وهى لم تبلغ مبلغ يقين النبى ε وقال الراغب الأصفهانى: نبأته أبلغ من أنبأته [فلَنُنَبئَنَّ الذين كفروا - يُنَبّؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر] ويدل على ذلك قوله تعالى: [فلماَ نبّأَهَا به قَالَتْ من أنبأكَ هذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ العَلِيمُ الخَبِيرُ] ولم يقل: أنبأنى، بل عدل إلى نبأ الذى هو أبلغ تنبيها على تحقيقه وكونه من قبل الله[1].

-ومن ذلك- أيضا ما جاء بصيغة المبنى للمجهول سابقا ومتقدما على المبنى للمعلوم خلافا للمعهود، وذلك فى قوله تعالى:

[وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (15) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً(16)] {الإنسان15-16}.

وقوله تعالى: [وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً]{الإنسان19}

---

[1] الأصفهانى -المفردات فى غريب القرآن- تحقيق وائل عبد الرحمن- المكتبة التوفيقية- القاهرة- مادة (نبأ).

قال الكرمانى[1]: إنما ذكر الأول بلفظ المجهول لأن المقصود ما يطاف به لا الطائفون، ولهذا قال: (**بآنية من فضة**) ثم ذكر الطائفين فقال: (**ويطوف عليهم ولدان مخلدون**) فالصيغة الأولى جاءت بالبناء للمجهول لأن الفاعل غير مراد، ولكن المراد تسليط الضوء ولفت الذهن إلى النعم المتعددة فى السياق، فإذا "انتهى من تعداد ذلك، كان لائقا التعقيب بذكر هؤلاء الغلمان الذين يقومون بخدمة المؤمنين ويقدمون لهم ما يقدم من ألوان هذه النعم التى ذكرت قبل، وإنه لمن المعقول حقا أن يتقدم تعداد النعم على من يقومون بتقديمها"[2].

–ومن ذلك أيضا– ما جاء مقدما بالتضعيف على وزن (فعّل) على الفعل المهموز على وزن أفعل، يقول تعالى: [**فَمهِّل الكافرين أمْهِلْهم رُوَيدا**] {الطارق17}.

وقد نص الكرمانى[3] على أن ذلك ليس من التكرار، والتقدير: مهّل: مهّل. مهل. لكنه عدل فى الثانى إلى قوله: "أمهل" كراهة التكرار، وخالفه الزمخشرى واعتبره من التكرار، فقال: أى إمهالا يسيرا؛ وكرّر وخالف بي اللفظين لزيادة التسكين منه والتبصير[4].

أى: فى ذلك إشاعة جو من الطمأنينة والسكينة فى قلب النبى ε وقلب المؤمنين ليثبتوا مع النبى ε ويصبروا على أذى الكافرين.. وهذا وإذا كان ختام السورة بهذا التكرار المؤدى للتوكيد، فإن فيه اتفاق واتساق مع بداية السورة بالقسم المفيد للتوكيد –أيضا– ثم بتكرار كلمة الطارق التى اشاعت جرسا قوى الإيقاع فى جو المشهد.

ثانيا: تقديم آية على أخرى فى النزول:

من المعلوم أن من الآيات ما نزل لسبب من الأسباب أو لمعالجة موقف من المواقف التى وقعت فى حياة المسلمين ومنها ما نزل لإثبات حكم شرعى أرادة الله لصالح الحياة والممات.. وكانت هذه الآيات تناسب أحوال الناس وعمر الدعوة الإسلامية فيهم ومدى صلابة العقيدة فى ذلك الوقت، فما نزل بمكة يختلف فى الأحكام والشرائع والأسلوب عما نزل بالمدينة، فإن "من أسرار القرآن أنه يمسك بأحوال النفس الإنسانية كلها، ويجئ إليها بما يناسب كل حال منها فى مواجهتها للأحداث، وفى تصورها لها، وإحساسها بها"[5].

وإذا نظرنا إلى أول ما نزل من القرآن الكريم فسنجد قوله تعالى:

[اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2)] {العلق1–2}

---

[1] الكرمانى– البرهان فى متشابه القرآن ص319.

[2] د. عودة الله لبقسى –سر الإعجاز ص101،102.

[3] البرهان فى متشابه القرآن ص323.

[4] الكشاف 737/4.

[5] عبد الكريم الخطيب –إعجاز القرآن– ط1– دار الفكر العربى– القاهرة– 1964– 294/2.

فجاء الخبر بأن الله خلق الإنسان من (علق)، والعلقة "الدم الجامد. وإذا جرى فهو المسفوح، وقال: (من علق) بجمع علق، لأن المراد بالإنسان الجنس، وإذا كان المراد بقوله: (الذى خلق) كل المخلوقات، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفا له، وإذا كان المراد بالذى خلق: الذى خلق الإنسان، فيكون الثانى تفسيرا للأول، والنكتة ما فى الإبهام ثم التفسير، من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولا، ثم فسر ثانيا"[1].

وهذه الآية مكية وقد تقدّمت فى النزول على آية سورة المؤمنون وهى مكية –أيضا– وذلك فى قوله تعالى: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ (14)] {المؤمنون12–14}.

والعلة فى ذلك –والله تعالى أعلم– أن آية العلق كانت فى بداية ظهور الإسلام وأولى نسائمه، ولم تكن النفوس مهيأة لاستقبال الأمر المفصل أو الشرح المطول بدقائقه، فأجمل لكى يمس القلب ويطرقه طرقا خفيفا يوقظ الذهن من غفوته وغفلته، ثم جاء بعد ذلك التفصيل ووصف المراحل الدقيقة فى سورة المؤمنون بعدها تهيأت النفوس لذلك واستعدت لاستقباله وفهمه.

–ومن ذلك– أيضا– ما جاء من الآيات مقدما بعضه على بعض فى تحريم شرب الخمر، وذلك مراعاة لمقتضى الحالة التى كان عليها المسلمون من شربها فى ذلك الوقت، فلم يكن سهلا أن ينقلهم الإسلام فجأة من المألوف إلى التحريم، فنزلت الآيات بالتدرج فى مراحل التحريم، فتقدمت أولا آية بيان الإثم الأكبر والمنافع الأقل للخمر، فأصبح التنفير واقعا فى النفس، يقول تعالى: [يسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ] {البقرة219}.

ثم نزل فى مراحل ثانية قوله تعالى: [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُواً غَفُوراً] {النساء43}.

---

[1] الشوكانى –فتح القدير 628/5.

فانتقل المسلمون مع هذه الآية نقله ثانية تالية للمرحلة الأولى، فصاروا يتجنبون شرابها فى النهار الجامع لأطراف الصلاة، حتى أصبح الوقت المباح لشرابها هو الليل وقليل فاعله، ثم كانت المرحلة الأخيرة التى أتم الله –تعالى– فيها التحريم القاطع إلى يوم الدين، فقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] {المائدة90} فهم فى هذه المرحلة كانوا على أتم الاستعداد النفسى والجسدى لاستقبال هذا الأمر وتنفيذه من فوره دون معاناة أو تملل.

صورة أخرى متكاملة تحمل أجزاء المشهد الواحد لو ضُم بعضه إلى بعض، ولكنه يبدأ بأخف المراحل فيقدمها أولا ثم يتدرج إلى الأشد حتى يبلغ الغاية ويفى بها.. إن ذاك مع عصا موسى عليه السلام..

يقول تعالى: [قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)] {طه18–20}.

ويقول تعالى: [وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ] {النمل10}.

ويقول تعالى: [وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ] {القصص31}

ويقول تعالى: [فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ] {الأعراف107}

ويقول تعالى: [فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ] {الشعراء32}.

ونفهم من هذا الترتيب أن أول اختبار لموسى مع العصا أنها ظهرت له فى صورة (حية تسعى) فوقع فى نفسه ما وقع من خوف.. ثم جاء الاختبار الثانى فى سورة "النمل" وهى متأخرة نزولا عن سورة "طه" وفيها تظهر العصا "حية" فى ضخامتها و "جانا" فى انطلاقها واقتضاها، ولهذا لم يخف مجرد خوف، كما فعل حين واجه الحية، ولكنه "ولَّى مُدبرا ولم يُعقِّب"[1]

أما الصورة الثالثة فهى تحول العصا إلى ثعبان مبين، وهذا المشهد قد وصل إلى ذروته، لأن مشهد الإلقاء للعصا يغاير المشهدين السابقين الذين كانا على سبيل الإعداد والتجهيز النفسى.. أما المشهد الثالث فهو مشهد الموقعة والتحدى، فكانت الصورة التى جمعت "بين الحية والجان فى كيان واحد قد برزت كاملة فى قوله تعالى: "فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين" ثعبان لا كالثعابين.. وإنما هو

---

[1] عبد الكريم الخطيب –إعجاز القرآن– 298/2.

ثعبان عظيم.. فيه خفة الثعبان ونشاطه، وعظم الحية وضخامتها.. وفى كلا الموضعين تقع الصورة التى تجئ عليها المعجزة على حال واحدة.. ولهذا جاء النظم القرآنى لهما على سواء"[1]. "فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين" [فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ] {الأعراف107} [فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ] {الشعراء32}.

تقديم موضوع على آخر فى السورة الواحدة:

اختلف العلماء فى ترتيب سور القرآن هل هو توقيفى أو باجتهاد الصحابة، وكان جمهور العلماء على أنه ليس توقيفيا بل هو من اجتهاد الصحابة –رضوان الله عليهم– .. أما الآيات فقد كان "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فى ذلك، وقال عثمان –رضى الله عنه– كان رسول الله ε تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا"[2].

ومعظم السور القرآنية قد استملت على موضوعات متعددة، كالسبع الطوال والمئين والمثانى والمفصل.. وهذه الآيات الموضوعية قد تقدّم بعضها على بعض بتوقيف من الله عز وجل –وتظهر فى ذلك نكتة بلاغية، نتبينها فى المثال الآتى، ألا وهو (سورة البقرة).. وهى على طولها ووضوح تفصيلها تتكون مما يأتى:[3]

المقدمة: الآيات (1-20)

وهى فى التعريف بشأن هذا القرآن (أى: فى هذه السورة)، وبيان أن مافيه من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم.

المقصد الأول: الآيات (21-25)

وجاء فى دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام، ثم عود على بدء فى أربع عشرة آية من {26–39}.

المقصد الثانى: الآيات من (40-162)

فى دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق. وعلى ذلك مدخل إلى المقصد الثالث فى خمس عشرة آية من {163–177}.

---

[1] عبد الكريم الخطيب –إعجاز القرآن– 300/2.

[2] السيوطى –الاتقان فى علوم القرآن– المكتبة الثقافية – بيروت– 1973– 60/1.

[3] انظر كتاب: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز –ط7– دار القلم– الكويت– 1993– ص163 بتصرف.

المقصد الثالث: الآيات من (178 – 283)

في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا.

المقصد الرابع: فى آية واحدة (284)

ذكر الوازع والنازع الدينى الذى يبعث على ملازمة تلك الشرائع.

الخاتمة: فى آيتين اثنيتين (285-286)

وهى فى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم. إنها كالبناء الشامخ الذى يبدأ فيه بإقامة الأساس من جذوره، ثم إقامة البنيان وتشييده ثم زركشته وتزينه.

فهذا الترتيب للموضوعات فى داخل السورة لهو كالحلقات المتشابكة يشدَّ بعضها بعضها ويؤدى كل موضوع إلى أخيه فى تسلم رائق، يمهد له ويبسط ضوءه رويدا حتى يلقى بدره من الأعماق.. ماذا لو جاء موضوع منها قبل الآخر؟! ما نرى إلا اختلال ميزان الفكر وتشتت الوجدان والشعور!!

وقوفا مع سورة أخرى، هى سورة النور، وهى مدنية وآياتها أربع وستون آية .. وهى فى الآداب الاجتماعية والتربية والنورانية التى تشع بنورها فى البيت والأسرة والمجتمع.

ويجرى سياق السورة حول محورها الأصيل –التربية– فى خمسة أشواط[1]

- الأول: يتضمن الإعلان الحاسم الذى تبدأ به، ويليه بيان حدّ الزنا، ثم بيان حدّ القذف، ثم حديث الإفك.
- الثانى: وسائل الوقاية من الجريمة، وتجنيب النفوس أسباب الإغراء والغواية، فيبدأ بآداب البيوت والاستئذان على أهلها، والأمر بغض البصر والنهى عن إبداء الزينة. والحض على إنكاح الأيامى، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء.
- الثالث: يتوسط مجموعة من الآداب التى تتضمنها السورة، فيربطها بنور الله، ويتحدث عن أطهر البيوت، وفى الجانب المقابل الذين كفروا وأعمالهم.. ثم يكشف عن فيوض الله فى الآفاق.
- الرابع: يتحدث عن مجافاة المنافقين للآدب الواجب مع رسول الله ε ويصور أدب المؤمنين.
- الخامس: آداب الاستئذان والضيافة فى محيط البيوت، وآداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة.

فيعجب المتأمل من هذا الترتيب المنطقى البديع الذى بدأ أولا بتطهير المجتمع من الجريمة ووضع العقاب والزجر ليرتدع المجرم، وقدّم ذلك على عرض وسائل الوقاية لتتهيأ النفس لاستقبال تلك

---

[1] سيد قطب– فى ظلال القرآن– ط25– دار الشروق– القاهرة– 1996– 2486/4.

الآداب الوقائية بنفس هادئة، وتقبل على أساليبها بحب ممتزج بالخوف من الله.. وهذان الموضوعان لازمان للدخول فى الحديث عن آداب أخرى يربطها بنور الله.

ثم تصوير للآداب المفقودة فى حق المنافقين، فتقدم على تصوير آداب المؤمنين، فبدأ من الأدنى للتنفير منه، ثم للأعلى لشحذ الهمم وتنشيط النفس وترغيبها بعد ترهيبها.

يتقدم تنظيم العلاقات الأسرية الصغيرة داخل البيوت، لأن ذلك هو النواة والأساس الذى بنى عليه بعد ذلك تنظيم العلاقات بين الأسرة الكبيرة فى المجتمع المسلم ككل.. فيتقدم قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ]{النور58} (وهى الأسرة الصغيرة) على قوله تعالى: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] {النور62} (وهى الأسرة الكبيرة).

وفى وسط هذه الآداب تأتى استراحة قصيرة –إن صحّ التعبير– ليمضى السياق فى عرض مشاهد الكون ومظاهر الوجود الجميل والتأمل فى تقلب الليل والنهار وعرض مظاهر القدرة على الخلق والتنويع فى أشكال الخلق {وذلك فى الآيات من 41–45} لتتوسط هذه الوقفة الكونية ما سبقها من آداب وتعاليم وما لحقها من آداب وتعاليم، فهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق، لقد تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاستئذان على البيوت، وإلى جانبها جولة ضخمة فى مجال الوجود، ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين فى التحاكم إلى الله ورسوله وسوء أدب المنافقين، إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين، وها هو ذا يعود إلى آداب الاستئذان فى داخل البيوت إلى جانب الاستئذان من مجلس رسول الله ε وينظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء، إلى جانب الأدب الواجب فى خطاب الرسول ودعائه"[1].

التقديم والتأخير فى المتشابه:

---

[1] فى ظلال القرآن 2532/4.

قد تأتى بعض الآيات متشابهة فى كلماتها ولكننا نجد كلمة قُدمت فى آية وأُخرت فى أخرى لسر بلاغى أودعه الله فى السياق، وسوف نقف –بإذن الله وتوفيقه– مع بعض هذه النماذج القرآنية التى وردت عبر السور المختلفة.. ومن ذلك قوله تعالى:

[وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ] {البقرة48}

وقوله تعالى:

[وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ] {البقرة123}

فالآيتان من مشاهد القيامة وساحة القضاء الأعلى، وقد سُبقت الآيتان بآية تامة التشابهة متحدة الكلمات وانتظامها، وهى قوله تعالى: [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ] {البقرة47} [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ] {البقرة122}.

وهذا التكرار للحث على التذكر للنعمة والتحذير من الإعراض عن الله ورسوله، فاليهود أمة جبلت على العناد والتمرد وذلك على الرغم من أنهم أكثر الأمم رسلا وأنبياء، وقدّم الشفاعة فى السياق الأول {آية 48} "قطعا لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله، وأخرّها فى الآية الأخرى {123} لأن التقدير فى الآيتين معاً: لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة، لأن النفع بعد القبول، وقدم العدل فى الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدما فيها"[1]

ومما يشدّ من أزر ذلك المعنى الذى يبرز قطع الأمل فى تلك الشفاعة، أنه جاء بـ (يوما) على التنكير للتهويل ودفع النفس نحو الخوف والحذر. ونكرّ النفس مرتين للدلالة على العموم والشمول لكل نفس "وهو الإقناط الكلى القاطع للمطامع"[2]، وقد جاء بالفعل (يُقبل) مع (شفاعة) لأنها محل القبول على سبيل الرحمة والرأفة، وجئ بالفعل (يؤخذ) مع (عدل) لأن ذلك على سبيل الفداء[3] ومن ذلك قوله تعالى:

[وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ] {البقرة58}

---

[1] الكرمانى –البرهان– فى متشابه القرآن – ص 108.

[2] البيضاوى –تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب الخفاجي– المكتبة الإسلامية– تركيا– 99/1.

[3] د. محمد موسى (التنكير وأثره البلاغى فى سياق القرآن) ط1– مطبعة الأمل بالمنصورة– 2001 ص104.

وقوله تعالى: [وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ] {الأعراف161}

ففى الآية الأولى: {وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة} وفى الآية الثانية: {وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا}.

وقف الزمخشرى على هذا الاختلاف على استحياء ولم يشأ الدخول فى غمارة وأعماقه، فاكتفى بقوله: "لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض بين قوله: }اسكنوا هذه القرية وكلوا منها{ وبين قوله: (فكلوا) لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، وسواء قدّموا الحطة على دخول الباب أو أخروها، فهم جامعون فى الإيجاد بينهم، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته"[1].

والحق أن السياق اختلف فأدى إلى معان بلاغية دقيقة، فقد جاء صدر الآية فى السياق الأول بالفعل المبنى للمعلوم بإثبات (نا) لله تعالى على التعظيم فقال: (وإذ قلنا) فناسب ذلك المقام ذكر (رغدا) على التنكير التفخيمى.. ولما كان الدخول فى قوله: (ادخلوا هذه القرية) غير السكن فى قوله: (اسكنوا هذه القرية) لأن السكن يعنى اللبث والإقامة والاطمئنان، فقد جاء فى السياق الأول الفاء فى (فكلوا) والثانى (وكلوا).. "وقدّم (وادخلوا الباب سجدا) على قوله: (وقولوا حطة) فى سورة البقرة وأخّرها فى الأعراف، لأن السابق فى هذه السورة(ادخلوا) فبيّن كيفية الدخول.. وفى هذه السورة (أى سورة البقرة) (وسنزيد) بواو، وفى الأعراف (سنزيد) بغير واو، لأن اتصالها فى هذه السورة أشد لاتفاق اللفظين. واختلفا فى الأعراف فكان اللائق به (سنزيد) فحذف الواو ليكون استئنافا للكلام"[2].

ومن التقديم فى المتشابه قوله تعالى: [خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] {البقرة7}.

وقوله تعالى: [أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ] {الجاثية23}.

فى آية (البقرة) جاء الحديث قبلها عن المتقين ثم الكافرين الذين ختم الله على قلوبهم التى هى المضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، كما جاء فى الحديث الشريف، فكان

---

[1] الكشاف 170/2.

[2] الكرمانى -البرهان فى متشابه القرآن- ص110.

الكلام فى هذه الآية على عمومه.. أما فى آية الجاثية فهى تتكلم عن خاصة بعينها تقع فى فئة من الناس، يتخذون العبادة بأهوائهم، ومن القراءات: (آلهة هواه) فينتقلون فى عبادتهم من حجر إلى حجر أو غيره حسبما يتراءى لهم.. فناسب ذلك تقديم الختم على السمع لأنه سمع التعقل والهداية وهو أداة ووسيلة لنقل الفهم، كما جاء فى قوله تعالى: [ولهم آذان لا يسمعون بها] {الأعراف179}.

ومن ذلك قوله تعالى:

[وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ] {القصص20}.

وقوله تعالى: [وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ] {يس20}

بداية نرى صدر الآية جاء بـ (جاء) دون (أتى) لأن (جاء) تحيط به معانى العلم واليقين وتحقق الوقوع والقصد[1].. وبالنظر إلى الآيتين نجد تقديم (رجل) فى الأولى وتأخير فى الثانية لاختلاف المقام فيهما ففى الآية الأولى تقدم (رجل) لتسليط الضوء عليه ولفت الذهن إليه وما يحمله من نبأ المؤامرة، بوصوله إلى موسى –عليه السلام– يتغير الموقف ويخرج موسى متخفيا مترقبا.. أما فى الآية الثانية فالمقام يقتضى تسليط الضوء ولفت الانتباه إلى المدينة بصفة أساسية لا إلى الرجل، فتظهر المدينة على غفلتها وعدم اتباعها المرسلين ثم إرادة الرجل هدايتهم.. فتأخر الرجل هنا يبين أنه لم يكن محتاجا للسرعة والعجلة ومسابقة الزمن بالقدر العظيم الذى كان يحتاجه المقام الأول.. ومن هنا يتبين بُعد ما ذهب إليه الكرمانى فى قوله: "خصت فى هذه السورة (أى القصص) بالتقديم لقوله قبله: "فوجد فيها رجلين" ثم قال: (وجاء رجل) فاكتفى بالنظر إلى التقديم على أساس ذكر الرجلين من قبل لا غير!.

ومن ذلك قوله تعالى: [وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ] {الأنعام70}.

وقوله: [اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ] {الحديد20}.

---

[1] محمد المنجد –الترادف فى القرآن الكريم –ط1– دار الفكر– دمشق– 1997 ص146.

وقوله تعالى: [وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] {العنكبوت64}.

فآيتا (الأنعام والحديد) فى معرض الحديث عن الدنيا وأحوالها، وفيها تدرج من الأدنى إلى الأعلى فاللعب أولى مراحل الطفولة، والتكاثر فى الأموال والأولاد نهاية المطلب وقمة اعتلاء عروش الدنيا.. أما آية (الحديد) فهى فى معرض المقابلة بين الدنيا والأخرة، فالأولى لهو ولعب والثانية هى الحياة البالغة، وكان لأسلوب المقابلة هنا حسن التنسيق والإيقاع الجميل، وهى "من جملة طرق العرض التى يلجأ إليها القرآن، وهى متكاملة متجانسة مع بقية الأساليب لأداء الأغراض والقيم التى يريدها المنهج القرآنى، لكنها تعد من أبرز الطرق الواضحة فى العرض، وفى لأداء البيانى الذى يسعى إليه القرآن"[1] وقال الكرمانى بدأ بذكر اللهو لأنه فى زمان الشباب، وهو أكثر من زمان اللعب: وهو زمان الصبا[2].

ومن ذلك قوله تعالى: [قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)] {المؤمنون82-83}.

وقوله تعالى: [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)] {النمل67-68}.

بتأخير اسم الإشارة (هذا) فى الأولى، وتقديمه فى الثانية، ولعل ذلك راجع إلى التفصيل المذكور فى آية المؤمنين: الموت والتراب والعظام، فأغنى التفصيل عن تقديم اسم الإشارة، وهو لم يقع فى آية النمل، وبقى أن نشير إلى أن الآيتين قد صُدّرتا بالقول: (قالوا).. (وقال) إشارة إلى أنه زعم باطل ليس له رصيد من اليقين والحق، ثم يصور القرآن الكريم مدى اعتمال الانفعال فى نفوسهم وإصرارهم على العناد وذلك عن طريق أسلوب القصر بالنفى والاستثناء وبالأداة (إن) إيثار على (ما) مثلا.

ومن ذلك قوله تعالى: [فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ] {المؤمنون24}.

---

[1] د. بن عيسى طاهر –المقابلة فى القرآن الكريم– ط1 – دار عمار– عمان (الأردن) – 2000– 213

[2] الكرمانى –البرهان فى متشابه القرآن– ص261.

وقوله: [وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ] {المؤمنون33}

فقدّم (الذين كفروا) على (من قومه) فى الآية الأولى، وأخرّ فى الثانية، وذلك لاختلاف المقام وتباين السياق بينهما.. ففى الأولى صرّح بذكر الرسول فقال: [ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم..] {المؤمنون23} وكرر ذكر القوم مرتين وأضاف "(قوم) إلى ضمير (نوح) لأنه أرسل إليهم فلهم مزيد اختصاص به، ولأنه واحد منهم وهم بين أبناء له وأنسباء، فإضافتهم إلى ضميره تعريف لهم إذ لم يكن لهم اسم خاص من أسماء الأمم الواقعة من بعد"[1].

بينما تقدّم ذكر (قومه) على (الذين كفروا) فى الثانية لأنها سبقت بذكر الرسول المرسل منكرا فقال تعالى: [فأرسلنا فيهم رسولا منهم] {المؤمنون32} وهم قوم هود، فاحتيج إلى تقديم قومه الذين لم يذكروا صراحة ولو مرة واحدة فى الآية (32).

وربما كان تقديم (وقال الملأ الذين كفروا) لاختصاص القول بهم وشموله لهم وبيان أثر قولهم فى قومه وفى الناس كافة، إذ لم يؤمن معه إلا قليل كما جاء صريحا فى القرآن [وما آمن معه إلا قليل]{هود40} وجاء تقديم {وقال الملأ من قومه..} لاختصاص القول بقومه -قوم عاد- وبيان أثرهم فى الناس. والله تعالى أعلم.

---

[1] ابن عاشور -التحرير والتنوير- الدار التونسية للنشر- الجماهيرية العربية الليبية- 187/29.

الخاتمة

إن القرآن الكريم معين لا ينضب وجنة فيحاء لا ينقضى ثمرها، بل يظل ملء السمع والبصر، يملك الفؤاد ويستولى على العقل والوجدان.. وإننا بعد هذا التطوف الذى منَّ به الرحمن نذكر من النظرات من يأتى:

أولاً: إن الإعجاز البلاغى لأسلوب التقديم والتأخير إعجاز فياض عظيم التدفق لا يقع فى حصر.. وسبيل التعرض لفيوضاته وتلمس أسراره لا يقف عند حد فى كلمة أو جملة، بل يشهد السياق فى مجملة بستانا مورقا يانع الثمار والأزهار، لا تكاد تمد يدا لقطف ثمرة إلا وتجذبك الأخرى والأخرى فلا تستطيع الفراغ حتى تأتى على البستان كله!.

ثانياً: الألفاظ القرآنية لها دلالتها فى سياق الجملة فلا يمكن أن يرادف لفظ لفظاً آخر فيتساوى معه فى المعنى تمام المساواة، بل إن الكلمة ذاتها لتتكرر فى أكثر من سياق لتدل على معنى آخر مغاير فى كل سياق، فإذا نظرنا إلى دلالة الكلمة المختارة فى ظل تقديمها أدّى ذلك إلى إبراز المعنى فى قوة وجلاء، وساعد على تصوير المشهد فى تدفق وحياة.

ثالثا: كان لأسلوب التقديم سمة أسلوبية بالغة الأثر فى معرفة خواص تراكيب الكلام وكشف خبايا النفوس والنفوذ إلى أعماقها وتصوير شخصيات المشهد فى صورة حضورية تبين ما عليها من فرح أو ترح أو اضطراب وتوتر أو إيمان أو نفاق أو نحو ذلك.

رابعا: كان لأسلوب التقديم والتأخير سمة التغلغل والانتشار فى كافة سياقات القرآن –تقريبا– وكان له دور بارز فى آيات الأحكام وأساليب الحوار لا يقل بحال عن دوره فى الآيات المكية وما حملته من مشاهد القصص أو الآخرة.

خامسا: استطاع أسلوب التقديم أن يخاطب العقل والوجدان فى آن واحد، وكان له القدرة على حمل السامع أو القارئ على المشاركة فى تفعيل الموقف القرآنى وما يبثه من معان وآداب رفيعة، فنشّط الخيال وحرّك الأذهان والعقول.

سادسا: لا يقف التقديم والتأخير عند حد جزيئات اللغة من كلمات وجمل يُقدَّم بعضها على بعض وإنما يمتد ليشمل الآيات والموضوعات الكبرى التى جاءت فى ترتيبها توقيفا من عند الله تعالى بإجماع العلماء، وما كان لآية أن تسبق أختها أو موضوع هو سابق لأخيه إلا لنكتة بلاغية ودلالة معنوية يثبتها السياق فى مضمونه وبين طياته.

بعض التوصيات:

إننا من هذا المنطلق ومن ساحة القرآن العظيم نهدى إلى حضرتكم جزيل الشكر والعرفان على هذا العمل الشريف ونسأل الله تعالى أن يجعله فى ميزان حسناتكم.. ونقف مع بعض الهمسات الآتية:

- عقد المزيد من مؤتمرات الإعجاز القرآنى على أن تكون فى أوقات متقاربة –قدر الاستطاعة– ومحاولة الاشتراك مع الجهات العلمية المعنية بهذا الأمر للتعاون على البر والتقوى والمزج بين الجهود المترامية الأطراف لصهرها فى بوتقة واحدة.
- العمل على إنشاء معهد لدراسة القرآن وعلومه وإعجازه وتكون الدراسة فيه لغير المتخصصين ويشتمل على مدة زمنية مناسبة على شكل دورات –مثلا– ويمنح شهادة معتمدة على غرار الدورات المكثفة أو غيرها التى ينتظم بها دارسو اللغات الأجنبية والحاسوب وغير ذلك.
- جمع ما وصلت إليه الجهود السابقة من دراسات فى مختلف نواحى الإعجاز ولا سيما الاكتشافات العلمية التى أثبتها العلماء وتوافقت مع صريح القرآن الكريم تجسيداً لقوله تعالى: {سنُريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} {فصلت53}. وطبع ذلك فى كتب مبسطة ومحاولة نشرها عن طريقة ما يأتى:
- البث الالكترونى عبر الإنترنت لمخاطبة العالم عن القرآن وإعجازه.
- النشر عبر البلدان العالمية العربية وغيرها (مع وضع الترجمات المختلفة) وذلك بالاستعانة بالهيئات والجمعيات المختلفة من أجل التمويل والمساعدة على النشر الإعلامى.
- إخراج جريدة أو مجلة دورية تحمل اسم الإعجاز القرآنى.
- العمل على إخراج نسخ مبسطة تشرح مختلف نواحى الإعجاز وفروعه لتوزع كهدايا على طلبة المدارس والجامعات المختلفة ليعرفوا (الفرقان الحق)..
- ينبغى لنا أن نضع إعجاز السنة النبوية فى الاعتبار مع الإعجاز القرآنى، وذلك لأنها بمثابة المذكرة التفسيرية والشارحة للقرآن الكريم، وقد اشتملت على كثير من الأخبار التى توصل إليها علماء غير مسلمين فى معاملهم بعد جهد ووقت وعناء وعدّوها فى وقتها إنجازا علميا وإعجازا تفاخروا به على أهل الأرض!.

وأخيرا:

نهيب بسيادتكم أن تضعوا عوام الناس وبسطاءهم على عين الاعتبار والاهتمام فى هذا الصدد، وهؤلاء يشملون فئة عريضة من المجتمعات المختلفة، وهم يضمون متعلمين على اختلاف مستوياتهم وفئات أخرى ممن ليس لهم دراية ولا دراسة للقرآن الكريم وعلومه بله إعجازه والمحاورة به والدفاع عنه.

جعلنا الله من رافعى راية القرآن المخلصين وجزاكم الله خيرا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

ثبت المصادر والمراجع

1- **ابن الأثير** –المثل السائر– تحقيق محى الدين عبد الحميد– المكتبة العصرية– بيروت– 1995.
2- **الأصفهانى** –المفردات فى غريب القرآن– تحقيق وائل عبد الرحمن– المكتبة التوفيقية– القاهرة.
3- **البيضاوى** –تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب الخفاجى– المكتبة الإسلامية – تركيا.
4- الحسن بن عثمان –خلاصة المعانى– تحقيق د. عبد القادر حسين– دار الاعتصام – 1993.
5- **الزركشى** –البرهان فى علوم القرآن– تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم– دار التراث– القاهرة.
6- **الزمخشرى** – الكشاف– تحقيق مصطفى حسين – ط3– دار الريان– القاهرة– 1987.
7- **سيد قطب** –فى ظلال القرآن– ط25– دار الشروق – القاهرة– 1996.
8- **السيوطى**– الاتقان فى علون القرآن– المكتبة الثقافية – بيروت– 1973.
9- **الشوكانى** –فتح القدير– تحقيق د. عبد الرحمن عميرة– ط2 – دار الوفاء– المنصورة – 1997.
10- **د. عائشة عبد الرحمن** –الإعجاز البيانى للقرآن– ط2 – دار المعارف– مصر – 1987.
11- **ابن عاشور** –التحرير والتنوير– الدار التونسية للنشر– الجماهيرية العربية الليبية.
12- **عباس حسن** –النحو الوافى– ط12– دار المعارف– مصر – 1995.
13- **د. عبد العظيم المطعنى** –خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية– ط1– مكتبة وهبة– القاهرة– 1992.
14- **عبد القاهر الجرجانى** –دلائل الإعجاز– تحقيق محمد خفاجى– مكتبة القاهرة بمصر.
15- **عبد الكريم الخطيب**– إعجاز القرآن– ط1– دار الفكر العربى– القاهرة– 1964.
16- **عودة الله القيسى** –سر الإعجاز– ط1– دار البشير– عمان (الأردن)– 1996.
17- **د. بن عيسى طاهر**– المقابلة فى القرآن الكريم– ط1– دار عمار– عمان الأردن– 1– 2000.
18- **الكرمانى** البرهان فى متشابه القرآن– تحقيق أحمد خلف الله– ط2–دار الوفاء بالمنصورة 1998
19- **د. محمد دراز** –النبأ العظيم– ط7– دار القلم– الكويت– 1993.
20- **د. محمد كريم الكواز** –الأسلوب فى الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم– ط1– مكتب الإعلام والنشر– 1997.
21- **د. محمد محمد أبو موسى** –خصائص التراكيب– ط4– مكتبة وهبة– القاهرة– 1996.
22- **محمد المنجد** –الترادف فى القرآن الكريم– ط1– دار الفكر– دمشق– 1997.
23- **د. محمد موسى**–التنكير وأثره البلاغى فى سياق القرآن– ط1–مطبعة الأمل بالمنصورة– 2001
24- **مصطفى صادق الرافعى**–إعجاز القرآن والبلاغة النبوية–ط4–مطبعة الاستقامة القاهرة–1945

25- **ابن منظور**-لسان العرب- بإشراف الأستاذ على مهنا- ط1- دار الكتب العلمية-بيروت- 1993